مضمون الخطاب النثري العربي القديم/ الأستاذة الدكتورة سكينة قدور

المحاضرة الثانية مضامين أشكال النثر العربي الجديدة (الرسالة/ المقامة/ التوقيع/ قصص الحيوان الأخبار والنوادر (ملاحظة: الرسائل والمقامات والتوقيعات مكررة تؤجل إلى محاور لاحقة)

الخبـــــــــــر

المعنى اللغوي والإصطلاحي: وردت كلمة الخبر في القرآن الكريم خمس مرات اثنتان في صيغة الإفراد وثلاث جمعا، وتعني النبأ والقصة، وفي اللغة الخبار من الأرض ما لان واسترخى وتحفر وسهل ثم صار يدل على مجتمع الماء، فالخبراء منقع الماء والخبر بفتح الخاء والخبر بضمها منقع الماء في الجبل، والخبير النبات والعشب، والخبر الزرع والشجر، والخبر بفتح الخاء وكسرها المزادة الكبيرة يحمل فيها الماء كالراوية وأيضا الناقة الغزيرة اللبن واللحم، وكل هذه الأخيرة تحمل معنى الخفاء، ومنها الخابر بمعنى المجرب الذي خبر الحياة وعرف خفاياها، و الخبر بكسر الخاء وضمها والخبرة بضمها العلم بالشيء، وخبرت الأمر إذا عرفته، لتفيد مادة الخبر خلاصة العلم ودليله أو الإعلام به، فالخبر ما جاءك من نبأ عمن تستخبر، والخبير العالم بالخبر والمخبر الناس به.

أما اصطلاحا فحد الخبر كما يقول الحصري "ما جاز عليه الصدق والكذب ولم يعلم باطنه من الحق" فهو يشمل الوقائع وتعاليم الدين والتلقين والسماع والتاريخ وأيام العرب والمغازي والجغرافيا... تتداخل كلها في صورة أخبار.

وأقصى ما وصل إليه الخبر أنه كل ما يقال سواء أكان من جنس المقدس الديني كالقرآن الكريم والحديث الشريف أم من جنس الدنيوي، وقد أخرجه الجاحظ من دائرة الخرافة إن لم نقل هو نقيضها، ليصبح وثيق الصلة بالأحداث الحقيقية الواقعية. وكثيرة هي المادة الخبرية في التراث العربي القديم[1]، مثل أخبار الشعراء، أخبار القبائل العربية، أخبار الطفيليين، أخبار الحمقى والمغفلين... مما يقرب المادة الخبرية من الحوادث الحاصلة ومن المجال التاريخي ويجعل للخبر وشائج تشده إلى التاريخ والأنساب والآداب، وتوسعت الدائرة إلى ذكر أخبار الجن وأشعارهم، وانعدام الحدود الفاصلة في الخبر بين الواقعي والخيالي الذي يتاخم أحيانا الأسطوري[2]، وهناك بعض الأخبار هي أقرب إلى التراجم أو مقاطع صغرى منها تقدم عموميات حول شخصية ما أو حدث مركزي مثير في حياتها، وقد يتحول الخبر إلى سيرة أو قصة مثل أخبار المتصوفة.

الخبر في المدونة النقدية العربية: لم يحظ الخبر كغيره من الفنون السردية العربية القديمة بتنظير القدماء، فحتى الجاحظ الذي اهتم بالنثر العربي عموما خاصة في كتابه البيان والتبيين لم يول الفنون السردية كبير اهتمام، فقد اضطربت عنده المفاهيم، فكان يستعمل القصص والأخبار بمعنى واحد ويجعلها تحيل على ما هو شفاهي متناقل بين الناس دون أن يلتفت إلى جوانبها الفنية [43].

ومن الذين اهتموا ببعض هذه الفنون ابن وهب في كتابه "البرهان في وجوه البيان"، فقد فصل الكلام في "الحديث" وصنف أنواعه وتحدث عن خصوصياته وقدم إشارات خفيفة إلى الخبر، يقول في الحديث: "أما الحديث فهو ما يجري بين الناس في مخاطباتهم ومجالسهم ومناقلاتهم وله وجوه كثيرة فمنها الجد والهزل والسخيف والجزل والحسن والقبيح والملحون والفصيح والخطأ والصواب والصدق والكذب والنافع والضار والحق والباطل والناقص والتام والمردود والمقبول والهم والفضول والبليغ والعي..." [5]

وقد فرق أبو هلال العسكري بين الخبر والحديث ورأى أن الحديث سمي حديثا لأنك لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك فحدثت به، أما الخبر فأصله أن يكون الإخبار به عن غيرك، فالخبر خطاب تواصلي يكون بين أكثر من طرف، شفاهي متوارث سماعا تتناقله الناس بأمانة جيلا عن جيل، من الذين تركوا مصادر إخبارية متنوعة ابن الجوزي نذكر منها:

- الشفا في مواعظ الملوك والخلفا (قصص وحكايات وأخبار)
- المصباح المضيء في خلافة المستضيء (أخبار وقصص)
- بستان الواعظين ورياض السامعين (قصص وحكايات وأخبار)
- ذم الهوى (قصص وأخبار وحكايات)
- أخبار النساء (أحاديث وأخبار وقصص)
- أخبار الظراف والمتماجنين (أخبار)

فاللفظ الأكثر تداولا في هذه العناوين هو الأخبار يليه القص فالحكي، وكأن الخبر هو النواة الأولى والمركزية التي يقوم عليها كل عمل حكائي أو قصصي، يقول محمود تيمور في كتابه "محاضرات في القصص في أدب العرب ماضيه وحاضره": "يتناقل النقاد كلمة الأخبار فيحملون عليها في الكتب من أسمار وأقاصيص، والأقدمون لم يكونوا يفهمون من معنى الإخباري إلا أنه القاص،... يقول السمعاني في الأنساب: يقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر الإخباري"[6] ، مما يؤكد أن الخبر وحدة سردية ثابتة هي نواة مركزية في كل عمل سردي ، وهو وحدة سردية صغرى قد تتقلص إلى حدود الجملة الواحدة، مما يجعله يتميز ببساطة فعله ووحدته وقلة شخصياته فلا يتفرع إلى أحداث وأفعال، فقد يطول ولكنه يحتفظ بهذه الخاصية، بينما تتفرع الحكاية وتتشعب إلى الحد الذي يمكن عدها تطورا تدريجيا للخبر ففيها تجميع للأخبار في نوع من التكامل والانسجام.

البنية السردية للخبر: كما سبق وبينا الخبر نوع بسيط من الحكي يتميز بمقومات عامة جعلت منه نصا حيويا قابلا للترهين وإعطاء نوع سردي جديد ففيه عنصر الحكي البسيط الذي يقربه من القص، وفيه عنصر التوثيق الذي يقربه من جهة من التاريخ ومن جهة أخرى من الاجتماع لأنه يسرد في الأغلب ظاهرة إجتماعية ما، ويبقى مع ذلك ينتمي إلى الأشكال السردية البسيطة غير المركبة التي "تكون أقل تمركزا في الزمان والفضاء" [7]، ومن أهم مميزاته[1098]:

– السهولة وتتمثل في ارتكازه على المعيش اليومي غالبا والذي يكون قريبا من إدراك المتلقي فلا يتعب تفكيره في لم شتات الأحداث وإعادة تركيبها.

– الإيجاز ويتمثل في تقديم الحدث جملة واحدة دون مقدمات ودون اهتمام بالحدث، فالإخباري يعمد إلى تبليغ أخباره في شكل بسيط موجز قابل لسرعة الاستيعاب.

– التمثيلية وتتجلى في الجانب الفني والتصويري للخبر بمختلف عناصره من شخصيات وحدث قابل للعرض وانفعالات تؤثر في المتلقي وتشده إلى نهاية الخبر.

– أثر ما بعد الخبر ودفعه إلى التفكير والتساؤل، فهو مفتوح غير منغلق على ذاته أو زمانه، يمكن أن يدفع مخيلة المتلقي لمواصلة الحدث وتطويره ووضع نهايات له، نمثل له بخبر جاء في كتاب ابن الجوزي: "بلغنا عن عمرو بن العاص أنه منع أصحابه ما كان يصل إليهم فقام إليه رجل فقال: أيها الأمير اتخذ جندا من الحجارة لا تأكل ولا تشرب، فقال له عمرو اخسأ أيها الكلب، فقال له الرجل: أنا من جندك فإن كنت كلبا فأنت أمير الكلاب وقائدها [11]. فمما يثيره هذا الخبر التفكير في العلاقة بين القائد وجنده ورد فعل القائد والعبور بهذه العلاقة إلى أزمنة لاحقة.

وعموما فالخبر بنية سردية بسيطة قوامها السهولة والإيجاز، يقوم في الأغلب على ثنائية الإخبار والاستخبار، ويتمركز أساسا حول الحدث الواحد البسيط، لا يرتكز في الأغلب على الزمان والمكان، منفتح قابل للترهين والتحول، ويمتاز بقلة الصيغ الخطابية وعدم تنوعها وهيمنة صوت السارد فيها، فهو النوع البسيط المتكامل الذي يمكن أن تتفرع عنه الأنواع السردية المركبة كالسيرة والقصة والحكاية [12]، ليصبح أصل الأنواع السردية المركبة ونواتها الأولى.

هذا وتشكل البنية الحكائية الجوهر الثابت في كل عمل سردي فهي التي تجعل منه سردا، ومن أهم طرق دراسة هذا النوع السردي وظائف الشخصيات إذ هي أهم جزء فيها، والحكائية وهي ظاهرة تطور التحولات[13] المسجلة في الخطاب والتي تكون مسؤولة عن إنتاج المعنى، وبها تعرف الطرق التي يتأسس بها المعنى داخل العمل الحكائي.

كما يشكل الحدث أو الفعل عنصرا ثابتاوملازما للخبر، ينتفي بغيابه السرد، ويكون عادة بسيطا ومقتضبا، ينمو أفقيا فلا يتجاوز الفعل ورد الفعل المحوري الذي يثيره الخبر.

وبتأمل النصوص الخبرية العربية القديمة يمكن الإشارة إلى أربعة وظائف أساسية في بناها الحكائية هي:

– الإثارة: هي الإشارة المعلنة عن افتتاح السرد، والموجه الأساسي لكل التحولات التي سيمر منها الخبر، قد تكون عقلية وهي الأكثر تواترا في افتتاح الأخبار، تثير تساؤلات لدى المتلقي حول أسباب الحدث ونتائجه، نمثل له بهذا الخبر: "سرق من رجل خمسمائة دينار فحمل المتهمين إلى الوالي، فقال الوالي أنا ما أضرب أحدا منكم، بل عندي خيط ممدود في بيت مظلم، فادخلوا وليمرر كل واحد منكم يده عليه من أول الخيط إلى آخره، ويلف يده في كمه ويخرج، فإن الخيط يلف على يد الذي سرق، وكان قد سود الخيط بسخام (مداد أسود)، فدخلوا، فجر كلهم يده على الخيط في الظلمة إلا واحا منهم، فلما خرجوا نظر إلى أيديهم مسودة إلا واحدا فألزمه"[14]

لا تطالعنا هنا وظيفة الإثارة مباشرة، وتتمثل في أمر الوالي الذي يبدو غير مقنع لولا تدخل السارد بذكره لتسويد الخيط.

وقد تكون الإثارة وجدانية تتعلق بتحريك المشاعر من رغبة وأمل وخوف وطمع... مثل خبر الراهب وافتتانه ثم تراجعه تاركا قدمه للريح والشمس حتى تقطعت [15].

وقد تكون حسية ترتبط بفعل الحواس كالسمع والبصر، جاء في أخبار الأذكياء لابن الجوزي: " رأى ابن طولون يوما حمالا يحمل صندوقا وهو يضطرب تحته، فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال، وأنا أرى عنقه بارزة، وما هذا إلا من خوف ما يحمل فأمر بحط الصندوق فوجد جارية قد قتلت وقطعت فقال أصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة، فضرب الحمال مائتي عصا وأمر بقتل الأربعة".

فالإثارة هنا بصرية أثارت الكثير من الشكوك حول المشهد المرئي مع وجود إثارة سمعية، وهذا النوع كثير في التراث العربي.

–ا الخرق: يشكل الخرق الوظيفة الناتجة عن الإثارة، وهي التي تخلق نوعا من عدم التوازن في بنية الخبر الحكائية نتيجة الاستجابة للإثارة، فوظيفة الخرق تكسير لنظام معين أو نزعة محددة، وهو بمثابة رد فعل واع للإثارة، وكأنه يرمي بهذه الخلخلة إلى مواصلة المسار السردي من أجل الوصول إلى توازن جديد بعد حال من التوتر والاضطراب والترقب لدى المتلقي.

– الكشف: يؤدي الخرق إلى إثارة المتلقي وتساؤله عن الغاية منه، فإما أن يستثار بالخبرنحو نهاية معلومة فيتحقق انسجام الوظائف أو تنكسر الإثارة ويتوقف الخبر [16].

تتنوع وظيفة الكشف بتنوع وظيفتي الإثارة والخرق، إما أن يكون لسلوك أخلاقي معين أو حقيقة خافية أو تعرف على شخصية مطلوبة، فوظيفة الكشف تحول المسار السردي في اتجاه معين وهو يختلف من خبر إلى آخر، ويأتي نتيجة منطقية للخرق فيؤكد الإثارة التي انفتح بها الخبر أو يكسر الخرق مثل خبر الراهب، أو يكشف مجهولا مثل حقيقة العابد وكراماته، وهو إلى جانب ذلك يؤدي وظيفة أخرى باعتباره ممهدا لنهاية الأحداث.

– الخلاص: هو الوظيفة التي تنغلق بها البنية الحكائية ويتوقف فيها السرد، وقد هيأ الكشف المتلقي لذلك، فيتم مضمون الخبر ويتوقف الحدث فيه، يتخذ الخلاص صورا متنوعة، تختزل في معظمها في الثواب والعقاب بوضع الشخصية في النهاية المتوقعة غالبا، فالخلاص هو الوظيفة التي تأخذ على عاتقها إرجاع الأمور إلى مجاريها ووضعها الطبيعي الذي يجب أن تكون عليه.

– أما الأمكنة والأزمنة في سرد الأخبار فنادرا ما تأخذ سلطة حضور في النص الإخباري الذي ينزع إلى تقديم الوظائف على الشخصيات، فما يقال أهم من القائل وما يحدث أهم من الفاعل، والوظيفة في الخبر مركزية وهي البؤرة التي يدور حولها السرد.

– أنماط الخبر: تتنوع الأخبار بحسب طبيعة الموضوع والعناصر المكونة له، فمنها:

الخبر الواقعي: الذي يتأسس على غياب السارد التخييلي من المحكي، ويرتبط خاصة بالأخبار التاريخية التي تقدم ما وقع فعلا، فيكون للحدث فيه صفة الحقيقة الفعلية، مثل ماجاء في كتاب المنتظم في تاريخ الملو والأمم لابن الجوزي، وكتاب العبر لابن خلدون، يعتمد الزمن في الخبر الواقعي على التأريخ التسجيلي ذي المرجعية الزمنية التي تجعل منه ماضيا غير قابل للتكرار والتواتر، كما يرتبط بشخصيات معينة وأماكن محددة.

الخبر التخييلي المحاكاتي: الذي يتجاوز التسجيل الدقيق والتأريخي إلى الأدبي، وهو أكثر حيوية وإبداعية لأنه يفتح المجال للتصوير الفني وفعل التخييل ويلغي حدود المرجعية الزمنية والشخصية حتى وإن كان انعكاسا للواقع وإعادة صياغة له. مثل خبر عرس الطفيلي مع طفيليين [17]. وفيه يغيب التأطير الزماني والمكاني ليدل على إمكانية حدوثه كسلوك إنساني مرارا في أزمنة مختلفة ليس له مرجعية واقعية، فصار محاكاة للواقع ومعالجة لبعض السلوكيات كالبخل والتطفل والبلادة... تغيب فيه مرجعية الشخصية ويصبح كالقالب المناسب لكل ما شابهها من الشخصيات على مر العصور، فهذه الشخصيات التخييلية لا تمتلك التفرد والخصوصية وإن اقتربت من الواقعية، لتصبح ذات بعد مجازي رمزي يتداخل فيها الواقعي بالتخييلي ليوهم بالواقعية.

الخبر التخييلي: يتميز بتوظيف العجائبي ويتداخل مع الواقعي والتخييلي مما يجعله في حاجة دائمة إلى التأويل، يتجاوز الزمن ليكتسب حيوية مستمرة ومتجددة مثل خبر الثوري مع اللص وقد دخل ليعوم وخبر إبراهيم الخواص مع الشيطان، وهذا النوع قليل في الأخبار التراثية العربية كثير في سرود أخرى كالخرافات والسير الشعبية...

تداخل الأنماط: قد تتداخل كل هذه الأنماط إلى جانب بعضها وتتداخل بهدف الإيهام بالواقعية كوضع شخصيات ذات مصداقية تاريخي كالخلفا والسلاطين والشعراء مع أخرى غير واقعية.

عموما فإن الخبر العربي يتميز بالتنويع على مستوى أنماطه، لكن النمط الغالب على هذه المنصفات عامة هو التخييلي المحاكاتي الذي يتمحور حول تيمات دينية عقدية كحياة الزهاد وكراماتهم والخوارق المرتبطة بهم، وقد تنوعت موضوعات هذه الأخبار كالذكاء والحمق والعشق والبخل والظرف والزهد والكرامات [18].

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور